التفكير اللغوي بين النظام المقطعي والشكل الكتابي

اسماعيل عمايرة*

ملخـــص

ترمي هذه الدراسة إلى بيان تأثير الشكل الكتابي، في التفكير اللغوي التراثي عند العرب، ولما كانت اللغة نظاماً نطقياً، قبل أن تكون رمزاً كتابياً، فقد بات لزاماً أن ينظر إليها على أساس من مقتضيات النظام اللفظي، كنظام المقاطع، والنبر، والتنغيم... قبل أن ينظر إليها على أساس الرموز الكتابية التي قد تقصر عن الوفاء بمتطلبات الدقة الوصفية للظاهرة اللغوية المنطوقة.

ونظام الكتابة العربية ـ كغيره من الأنظمة الكتابية العتيدة ـ ما يزال ينهض بعبء حمل اللغة عبر رحلات الزمان. وقد ألفته الأجيال، ورأت فيه النظام الوفي بحاجاتها الفكرية والحضارية. غير أن المرء في النظر اللغوي الخالص، قد يلمس أثر القواعد الكتابية على التفكير اللغوي النطقي عند القدماء في وصفهم للظاهرة اللغوية، وبخاصة في الصوائت، وفي التغيرات المقطعية في بنية الكلمة. وقد سعت هذه الدراسة إلى تقديم نماذج تبين بعض الجوانب الدالة على مدى تأثر التفكير اللغوي بالنظام الكتابي على حساب النظام الصوتي للغة.

مقدمـــة

بلغ التفكير الصرفي عند القدماء ذرى تدعو إلى التأمل والإكبار، فقد بحثوا الكلمة في أوزانها، وأصولها، واشتقاقاتها، وعلاقتها بالسياق، وما طرأ عليها من تبدلات صوتية، وما تعاور عليها من مؤثرات صرفية ونحوية... غير أن هذا لا يعني أن يتوقف عند تلك الذرى دون أن يراجع الدرس اللغوي مراجعة منهجية معاصرة، تحاول أن تسهر على ذلك الجهد، وتعدل بعض المفاهيم.

فالصرفيون القدامى يسمون الأفعال التي على وزن "فاعل fāʿala "، مثلاً أفعالاً مزيدة بالألف. والألف هي الشكل الكتابي الذي حظي به الفتح الطويل، فالفرق الشكلي بين "فعل" faʿala و "فاعل" fāʿala تطويل الفتح، وكذا الفرق الشكلي بين "افعلّ" ifʿalla و "افعال" ifʿāla، وليس في حذف الألف كما عبر القدماء[1]

ويُسمى الصرفيون الصوتَ الخفيف الذي يُؤتي به تجنباً للبدء بساكن ـ وهو ما عُرف بهمزة الوصل ـ يسمونه ألفاً[2]، في نحو: انفعل، وافعتل، وافعلّ، واستفعل، وافعَوعل، وافعالّ، وافعول، وافعنلل، وافعلل... ولا شك في أن هذه التسمية لا تنطلق من الواقع الصوتي، وإنما من الشكل الكتابي. لقد عبّر النظام الكتابي عن الصوامت كتابياً، وأسماها حروفاً، ولم يعبّر عن الصوائت كتابياً، في الغالب الأعم، مع أنهم أدركوا أهميتها الصوتية، يشهد بذلك حديث القراء عن المدود ومقاديرها. غير أن النظام الكتابي جعلها في مرتبة تالية، من حيث الأهمية، لما أسموه "الحروف".

والعُرف الكتابي العربي هذا موروث من العادات الكتابية السامية، التي تعتدُ بالصوامت أكثر من اعتدادها بالصوائت، وفي مرحلة لاحقة اتخذت الرموز الكتابية التي أعدت لكتابة بعض الصوامت، وسيلة لكتابة بعض الصوائت. فالألف هي في الأصل، الرمز الكتابي للهمزة، والواو هي في الأصل، الرمز الكتابي للواو المتحركة، في نحو: ولد، والياء هي في الأصل، الرمز الكتابي للياء المتحركة، في نحو: يقع. والياء والواو المتحركتان صوتان صامتان. أما الصوائت الطويلة فقد كانت، كالصوائت القصيرة، لا تحظى برموز كتابية خاصة بها.

وسوف أتناول في هذه الصفحات، نماذج توضح أثر الشكل الكتابي على التفكير الصرفي، كما سأوضح أثر عدم معرفتهم للنظام المقطعيّ على التفكير الصرفيّ من خلال الأمثلة الآتية:

١ـ مضارع رأى: يرى

إن الأصل القياسيّ الذي ينبغي أن يكون عليه مضارع الفعل "رأى" هو "يرأى"، وقد أدى كثرة استعمال هذا الفعل إلى حذف الهمزة[3]، فأصبح الفعل: يرى yarā وتمثل ألفه من الناحية الذهنية المجردة: عين الكلمة ولامها.

ومما يدل على أن كثرة الاستعمال هي التي أدت إلى تخفيف الهمزة، أنّ هذه الظاهرة لم تحدث في ألفاظ من نحو: نأى ينأى، ومأى يمأى (امتدّ)، إذ هي قليلة الاستعمال. وتروي لنا كتب اللغة أن التخفف حدث حتى في الماضي من هذا الفعل، فقيل: "را" بمعنى "رأى"[4].

أما الصرفيون القدامى فيرون أن حركة الهمزة في "يرأى" انتقلت إلى الراء، وسُكنت الهمزة، والألف حرف ساكن عندهم بتأثير شكله الكتابي، وعلى هذا يكون قد

---

* أستاذ ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، تاريخ استلام البحث ١٩٩٥/٥/٢٧ وتاريخ قبوله ١٩٩٦/٣/٢٦.

(١) ابن جني، المنصف، ج١، ص ١١، ٢٧.

(٢) ابن جني، المنصف، ج١، ص ٥٣؛ الانباري، مختصر في ذكر الألفات، ص ٢٠-٢٣.

(٣) الجوهري، الصحاح، مادة رأى، ج٦، ص ٢٣٤٧.

(٤) ابن منظور، اللسان، رأى، ج١٤، ص ٢٩١.

التقى ساكنان، فحذفت الهمزة وبقيت الألف. ولا شكّ في أن هذا التعليل قائم على اعتبار الفتحة الطويلة، حرفاً ساكناً بتأثير من شكلها الكتابي، ولا يجوز أن نعدّ الهمزة حرفاً ساكناً أصلاً، لأنها متلوة بألف. هذا إذا أخذنا بافتراض أن تكون الكلمة آلت إلى: يرأى؛ إذ لو كتبناها صوتياً لكانت yara'ā، وهذا يعني أن الهمزة تصبح على هذا الافتراض - وهو غير صحيح - غير ساكنة، بل متلوة بفتحة طويلة.

وقد ذهب العينيّ إلى أنه اجتمع في هذه الكلمة ثلاثة سواكن: الراء، والألف المخففة عن الهمزة، والألف المنقلبة عن ياء، باعتبار أن أصل الكلمة المفترض هو: يرأيُ[٥].

وما قالوه في المضارع قيل مثله في الأمر: ارأ ← ارأى، ثم حُذفت همزة الوصل لأن الكلام بدأ بمتحرك، وذلك بانتقال الحركة إلى الراء. وقد حُذفت الهمزة التي هي عين الكلمة لأنها ساكنة وما بعدها ألف ساكنة - على حد تعبيرهم -، ثم حذفت الألف علامة على بناء الفعل الناقص للأمر.

٢- عين الفعل الأجوف:

يقول الصرفيون إنّ عين الفعل الأجوف تُحذف إذا اتصل هذا الفعل بضمير رفع متحرك، كأن يقال في كل من الأفعال: قام، وسام، وناب: قلت، وسُمت، ونبت. وهذه الأفعال وأمثالها قُلبت فيها الألف عن واو. وكأن يقال في أفعال من نحو: مال، وباع، وبان: ملت، وبِعت، وبِنت، وهذه الطائفة من الأفعال قلبت فيها الألف عن ياء. يقول ابن عصفور في تقرير هذه الظاهرة وتفسيرها: "فأنّك تنقل حركة العين إلى الفاء قبلها، وتحذف العين لالتقاء الساكنين، أعني حرف العلة مع ما بعده"[٦].

ولعلّ الصواب في هاتين الطائفتين من الأفعال أن يقال: إن حركة الضمّ الطويلة التي قُلبت ألفاً (بتأثير من الحركة التي قبلها) قد عادت إلى الأصل، ولكنها قُصرت. وعلى هذا فالألف لم تُحذف. ومما يُستدل به على أن الألف عادت إلى أصلها مع التقصير أن يُلاحظ في "قلتُ" qultu وما شاكلها: الضمُ، وفي: ملتُ miltu وما شاكلها: الكسر، وعلى هذا لم يُقل: قالتُ qāltu، أو مالتُ māltu تجنباً للمقطع الطويل المغلق *Überlange Silbe* وهو في هذين المثالين: "قال" qāl، و "مال" māl. فهذا النوع من المقاطع مما يضيق به بعض أهل العربية ذرعاً، إلا أن يكون في نهاية الكلمة.

ولو حدث في وسط الكلمة، نحو: "الضالين"، و "احمأر"، فإن بعض العرب يستسيغ طول هذا المقطع، وقد يمدونه ست حركات، كما في علم التجويد، لأغراض تحسين الصوت. ويلجأ بعضهم إلى التخلص من المقطع الطويل المغلق بقسمته إلى مقطعين قصيرين: أحدهما طويل مفتوح، والآخر قصير مغلق؛ وذلك بهمز "الضالين" و "احمار" فتصبح: "الضّألين"، و "احمأرّ". أي يصبح المقطع الطويل المغلق: مار mār من "احمارّ"، و "ضال" ḍāl من "ضالّين" مقطعين قصيرين: أحدهما قصير مفتوح (م + فتحة = ma)، والثاني قصير مغلق (أ + فتحة + ر = 'ar). وكثيراً ما احتاج الشعراء إلى قسمة المقطع تخلصاً من المقطع الطويل المغلق[٧]. وقد تخلص بعضهم من المقطع الطويل المغلق بتقصيره، تخفيفاً وتسهيلاً، فيقال: احمرّ. وقد عبر بعض العرب عن ضيقهم من هذا المقطع، في نحو: صبارة الشتاء (شدّة البرد) وحمارة القيظ (شِدّته)، فخففوا الشدة وقالوا: حمارَة القيظ، وصبَارَة الشتاء. وهذا يعني صوتياً التخفف من المقطع الطويل المغلق.

ḥa/ mā/ ra/ tu ← ḥa/ mār / ra / tu
ṣa/ bā/ ra/ tu ← sa/ bār/ ra/ tu

والتقصير مطلب صوتي عند بعض العرب حتى لو لم يكن للتخلص من المقطع الطويل المغلق. وعلى هذا قيل في (افعللتُ): "إنما هي مقصورة من (افعاللت) لطول الكلمة[٨].

فالألف، إذن، لم تحذف من "قلتُ"، أو "مِلتُ"، فالفعل قد ضم أو كسر، بناء على استشعار أصله، إذ هو عند إسناده قد أصبح qa/wul/tu و ma/yil/tu فتخلصت الكلمة من المقطع المبدوء بالواو المتحركة wu أو بالياء المتحركة yi فأصبحت مع الأصل الواوي qul/tu ومع الأصل اليائي mil/tu بتقصير الصائت بدلاً من تطويله، منعاً لتشكل المقطع الطويل المغلق.

على أن التبادل في الاستعمال قد يحدث أحياناً بين الكسرة والضمة اللتين تختصران الياء والواو في نحو: نِمت، وكان المنتظر قياساً أن يقال: نُمت، لأن أصل الكلمة واويّ، ومن ذلك: مِتُ وكان المنتظر أن يقال: مُتُ[٩]. فقد ورد في القرآن الكريم: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً. ربما يعود هذا إلى احتمال أن يكون أصل هذه الكلمات يائياً، أو مما تراوح فيه الاستعمال بين الياء والواو، أو هو من باب قياس ما أصله واوي على ما أصله يائي، على نحو ما يحدث في

(٥) العيني، شرح المراح، ص ١٨٥.
(٦) ابن عصفور، الممتع، ج٢، ص ٤٤١.
(٧) عبد التواب، فصول في فقه اللغة العربية، ص ١٩٣.
(٨) ابن جني، المنصف، ج١، ص ٨٠.
(٩) ابن عصفور، الممتع، ج ١، ص ٤٤٣.

اللهجات التي تتوسع في التلتلة، فلا تقتصر فيها على بعض أحرف المضارعة[١٠]، فتتجاوز ذلك إلى الماضي، فيقال ـ مثلاً ـ في: قلت: قِلت، وإلى الأسماء، فيقال: "حِميد" و "كِريم" و "سِليم" بكسر الحرف الأول بدلاً من فتحه، وهو نوع من المماثلة بين فاء الكلمة وعينها. وكذلك يفعلون في نحو: حُسين، فيكسرون الأول بدلاً من ضمه.

ولعل الاستئناس بالنظرة المقارنة بين اللغات السامية يشجع على عدّ ذلك من باب ظاهرة التلتلة، وهي لون من ألوان قياس ما أصله واوي على ما أصله يائي. ولو عُدنا إلى الكلمة السامية المشتركة "موت" لرأينا أنها في الأصل واوية، فقد وردت هذه الكلمة بالواو في كل من العبرية מָוֶת mōt وفي الاكادية mūtu، وفي العبرية الآرامية מָוְתָא mōt وفي السريانية ܡܘܬܐ mawtā وفي السبئية: م و ت[١١].

ويقول الصرفيون إن الألف قد حُذفت من نحو: استشرت istašartu ، وهي على الأصل استشارتُ istašārtu والصواب أن الألف في قيمتها الكتابية قد حُذفت، ولكنها من ناحية صوتية لم تحذف. وإنما قُصرت تجنباً للمقطع الطويل المغلق، šār. ويقول الصرفيون بحذف عين المضارع إذا كان أجوف مجزوماً وعلامة جزمه السكون نحو: لم أقل، ولم أبع ويقولون أنها تحذف كذلك في الأمر إذا كان الفعل أجوف مبنياً على السكون، نحو: قل، وبِع.

لقد انطلق الصرفيون من الرمز الشكلي الكتابي في هذا، وليس من القيمة الصوتية للصوت الصائت. فالحقيقة الصوتية هنا تتمثل في أن المضارع "لم أقل" aqul' قد قُصرت فيه الضمة الطويلة ū لتصبح ضمة u، أي بدلاً من "أقول" aqūl' أصبحت "أقل" aqul'، وبدلاً من أن يقال: "أبيع" abīᶜ' قيل: أبِع abiᶜ'، والحال كذلك في الأمر:

قول qūl ← قُل qul

بيع bīᶜ ← بِع biᶜ

ويعود هذا إلى المبدأ نفسه، وهو التخلص من المقطع الطويل المغلق بتقصير الواو ū أو الياء i.

ومعلوم صرفياً أن القياس في: أبيع، وأقول، أن تكون: أبِيع abyiᶜ'، وأقوُل aqwul' ولكن العربية تتحاشى هذا النوع من المقاطع المفتوحة التي يكون صامتها واواً wu، أو ياء yi ان هي جاءت في وسط الكلمة، كما تكره كذلك المقاطع المفتوحة الطويلة المبدوءة بواو أو ياء، إن هي توسطت الكلمة، في نحو: مبيوغ mab/yūᶜun ومقوولْ maq/wūl/un، ولذا فإنها تصبح mabīᶜ، و maqūl. على أن هذا ليس على إطلاقه، إذ نجد هذه المقاطع في نحو: يمشيان yam/ši/yān أي في معتل اللام، إذ أسند إلى ألف الاثنين. مع أن اللغة تفادته مثلاً، في الإسناد إلى واو الجماعة نحو: يمشون yam/šū/na وأصلها المفترض يمشيون yam/ši/yū/na وكذلك في الإسناد إلى نون النسوة، وياء المخاطبة.

ولم يحدث التقصير في المضارع المجزوم بحذف النون عند إسناده إلى المثنى والجمع، في نحو: "لم يبيعوا" lam yabīᶜū، أو "لم يقولوا"؛ لأنه لم يتشكل بالواو، أو الياء، مقطع طويل مغلق. وقد كان من الممكن أن يتشكل المقطع الطويل المغلق في نهاية الكلمة بالنون لو سُكنت، في نحو: لم يقولون lam yaqūlūn، ولكن هذا لم يحدث بسبب الجزم أو النصب (لن يقولوا)، أو البناء مع فعل الأمر (قولوا). ولذا كان حذف النون في هذه الحالات واجباً، لأنه لو جاز أن تنتهي الكلمة في هذه الحالات بالنون لكانت النون ساكنة وجوباً بسبب الجزم، أو البناء، حتى عند وصل الكلام بما بعده. وعندئذٍ يتكون المقطع الطويل المغلق في غير آخر الكلام، نحو: "يقولون" yaqūlūn، لأن هذا الوقف عارض بمعنى أنه عند الوصل تتحرك النون فلا يتشكل المقطع الطويل المغلق في وسط الكلام، فيقال: "يقولون" yaqūlūna.

٣ـ الفعل الناقص:

وتنصّ القاعدة الصرفية على أن الناقص المنتهي بألف، إذا أسند إلى واو الجماعة أو تبعته تاء التأنيث، فإن لامه تحذف، نحو: "سَعَوا"، "وسعت". وقالوا: إن الحرف الذي يسبق واو الجماعة أو تاء التأنيث يحرك بالفتح، ولا يُبنى على الضم كما هي الحال في الأفعال التي تنتهي في العادة بحرف صحيح، نحو: "ذهبوا"، أو "قالوا" بتأثير من واو الجماعة. ويُعلل الصرفيون حذف الألف، بأن واو الجماعة أو تاء التأنيث ساكنة، فإذا سُبق أي منهما بالألف، يكون ذلك قد التقى ساكنان. فهم يعدون الألف ساكنة. وقد أدرك الصرفيون أن الأصل أن يقال في نحو: سقوا: سقاو saqāw، وسقات saqāt تنتهي بمقطع طويل مفتوح. فإذا أضيفت إليها تاء التأنيث ـ وهي ساكنة ـ فإن المقطع الطويل يكون قد تكوّن هكذا: "قات" qāt، و "قاو" qāw، ولذا قصر المقطع الطويل المغلق، ليصبح قصيراً مغلقاً، وذلك بتقصير الصوت الصائت، هكذا: "قت" qat، و "قو" qaw. وعلى هذا فإن الحركة القصيرة التي سبقت واوالجماعة أو تاء التأنيث ليست عارضة، وإنما هي الألف في صورتها المقصرة.

---

(١٠) عمايرة، مقطع المضارعة ، أبحاث اليرموك، م١٢، ع٢، ص ١١٩-١٣٩.

(١١) حزينيوس، ص ٤١٠.

وبذا يتبين أثر الشكل الكتابي في التفكير الصرفي الذي توهم حذف الألف صوتياً، وتوهم الإتيان بحركة عارضة هي الفتح.

ولا ينطبق هذا على الثلاثي وحده إذا اتصلت به تاء التأنيث، أو أسند إلى واو الجماعة، بل يسري كذلك على المزيد، نحو: "استسقت" و "استسقوا"، إذ الفتحة بعد القاف هي، صوتياً ، الشكل المقصر لما توهموا أنه ألف محذوفة.

وتنص القاعدة الصرفية على أن الفعل الناقص المنتهي بياء، نحو: "بقي"، تُحذف لامه، إذا أسند إلى واو الجماعة. وعندئذٍ يُحرك ما قبل واو الجماعة بالضم. وعلى هذا تصبح: بقي baqiya ← بقوا baqū، فالصرفيون يذهبون إلى أن الياء قد حُذفت من اليائي.

ولو تخيلنا الأصل الذي كان ينبغي أن تكون عليه الكلمة لقلنا في "بقوا" baqū إن أصلها: "بقيوا" baqīū، وعلى هذا تكون الياء قد حذفت فعلاً، صوتاً وكتابة. فالياء في "بقيوا" baqīū قد حُذفت. وفي يزكون - وأصلها yaz/kū/ū/na - حُذفت الواو. والحذف هنا في الكلمتين مساغه توالي صوتين صائتين طويلين من جنس واحد، أو من جنسين مختلفين.

وهكذا تبين لنا هذه الأمثلة أهمية النظام الصوتي المقطعي للعربية؛ إذ بدونه يبقى احتمال الوقوع في الخطأ، أو اللبس، حاصلاً. ويتبين لنا كذلك، أن النظام الكتابي قاصرٌ، بحق، عن أن يستوعب جميع متطلبات النطق.

والصرفيون على حق كذلك في أن الواو أو الياء، لا تحذفان إذا كان الإسناد لغير واو الجماعة. ولننظر الآن إلى ما يحدث في الأفعال الناقصة، يائية اللام، إذا أسندت إلى غير واو الجماعة، كأن تُسند إلى التاء المتحركة، فيقال: "بقيتُ" baqaytu (ومن ثم "بقيتُ baqītu). فالياء هنا لم تحذف. وتفسير ذلك يعود إلى القانونين الصوتيين الآتيين:

- لا تكرر العربية صوتين صائتين طويلين متتالين من جنس واحد، حتى لا تفصل بينهما بهمزة، أو أي حرف حلقي.

وعلى هذا فإنه لا يجوز ā + ā، ولا يجوز ū +ū، ولا يجوز ī+ ī . ولكنها قد تمطل أياً من الصوائت، أي تزيد من نسبة تصويته.

- لا تكرر العربية صوتين صائتين طويلين متتاليين من جنسين مختلفين نحو ā+ ū ، أو ū +ā، أو ā+ ī، أو ī+ ū ...

وفي هذا ما يُفسر لنا تقصير الألف، والواو، والياء، في المضارع، إذا أسند الفعل المنتهي بأي منها إلى واو الجماعة في نحو، يَسعَون yasʿawna، بتقصير الألف، إذا أصلها: "يسعاونَ" yasʿauna. ونلاحظ هنا أن التقصير قد شمل الواو أيضاً فأصبحت w أي شبه حركة بدلاً من ū وتشكل من الفتح a + w ما يسمى صوتاً مركباً Diphthong: aw. وهكذا ننتهي إلى قانون صوتي آخر هو:

- تكره العربية توالي صوتين صائتين، أولهما قصير، والثاني طويل، نحو a + ū، فلا يأتي في العربية aū أو ai دون أن يفصل بين الصوتين صامت كالهمزة.

ومن أمثلة تقصير الياء وتقصير الألف، إذا أسندت إلى ياء المخاطبة في نحو: "تخشَين" taẖšayna فأصلها taẖšāīna.

وعلى القاعدة نفسها تقصير الياء وتقصير الألف في نحو: اخشَي 'iẖšay وأصلها 'iẖšāī'. وكذلك تقصير واو الجماعة في الأمر "اسعوا" 'isʿaw وأصلها 'isʿāū'.

ولكن الصرفيين القدماء يفسرون الحالات السابقة بذهابهم إلى أن الألف قد حُذفت، وفُتحت عين الفعل. وواقع الحال صوتياً أنها لم تحذف، وإنما قصرت، وقصر الصوت الصائت الذي يليها بدرجة أكبر، وهو واو الجماعة، وياء المخاطبة، وعلى هذا فالفتحة هنا هي الألف بعد تقصيرها، هكذا:

المضارع مع واو الجماعة yasʿāūna ←
yasʿawna ← yasʿūna
(yasʿa'ūna) (yasʿā'ūna)

المضارع مع ياء المخاطبة tasʿāīna ←
tasʿayna ← tasʿaīna
(tasʿa'īna) (tasʿā'īna)

الأمر مع واو الجماعة 'isʿāū ← 'isʿaū ← 'isʿaw
('isʿa'ū) ('isʿā'ū)

الأمر مع ياء المخاطبة 'isʿāī ← 'isʿaī ← 'isʿay
('isʿa'ī) ('isʿā'ī)

وفي جميع هذه الحالات نلاحظ كيف اتجهت العربية إلى المقطع القصير المغلق.

٤- الحركات الطويلة:

لقد جرى العُرف في التفكير الصرفي القديم على أن يُعبر عن الصوت الصائت بانه حركة، والحركة لا تعطى الرمز الكتابي الذي يستأهله، في العادة، غيرُ الحركة من الأصوات الأخرى التي تسمى "الحروف". أما الحركات الطويلة كالواو والألف والياء في نحو: "يدعو" و "يسعى"، و "يرمي"، فهذه ليست حركات، وإن كان بعض القدماء لم يفته أن الضمة بعض الواو، والكسرة بعض الياء، والفتحة بعض الألف. قال ابن عصفور: "الضمة تدل على الواو لأنها منها. والكسرة

تدل على الياء لأنها أيضاً منها"[١٢]. وقد قال بهذا ابن جني من قبل[١٣].

بيد أن هذا الرأي لم يتمثل عملياً، ويبدو أن تصوير الواو والياء والألف برموز كتابية كبقية الحروف من صاد وضاد... قد أدى إلى أن نعامل هذه الصوائت الطويلة، معاملة الصوامت. ولذا قيل: إن الألف ساكنة، وكذلك الواو والياء.

وقد بالغ بعض القدماء حين توهموا وجود فتحة في نحو: أباك، بين الألف (الفتحة الطويلة) والباء، ووجود ضمة بين الباء والواو في : أبوك، وكسرة بين الباء والياء في: أبيك، وعدّوا هذه الحركات المتوهمة حركات إعرابية، قال الزجاجي: "وبين العلماء اختلاف في هذه الواو والألف والياء، فيقول الكوفيون: هي الإعراب نفسه، ويقول البصريون: الحركات اللواتي قبل هذه الحروف هي الإعراب، وهذه إشباع"[١٤].

٥- إسناد الماضي إلى الضمائر:

العربية تكره توالي أربعة مقاطع مفتوحة متتالية ب ــ + ب ــ + ب ــ. (ترمز (ب) إلى الصامت، وترمز (ــ) إلى الصائت). وهذا ما عبر عنه ابن جني بقوله: "ألا ترى أنه ليس في كلامهم كلمة يجتمع فيها أربع متحركات"[١٥] . وعلى هذا لم تدع الفعل الماضي الذي اتصلت به التاء المتحركة على أصله، فلم يقل: ضَرَبَتُ ḍa/ra/ba/tu ولذا قيل ضَرَبَت ḍa/rab/tu. وبذا تكون الكلمة قد تكوّنت من ثلاثة مقاطع: قصير مفتوح + قصير مفتوح + قصير مغلق + قصير مفتوح. ويبدو أن توالي المقاطع الكبيرة المتتالية يولّد عند العربيّ رتابة موسيقية غير مرغوب فيها.

وقد علل القدماء هذه الظاهرة بتعليل يقترب من هذا. قال الأزهري في: شرح التصريح على التوضيح، في حديثه عن تسكين الباء في "ضربتُ" ونحوه: "فالسكون فيه عارض أوجبه كراهتهم، أي العرب، توالي أربع متحركات، وهي أحرف الفعل الثلاثة وتاء الفاعل"[١٦].

وقالوا في ضم الباء من "ضربوا" التي اتصلت بها واو الجماعة، إنه ضم عارض لمناسبة الواو[١٧]. والواقع أنهم تخلصوا من توالي المقاطع الأربعة المفتوحة ḍa/ra/ba/'ū. أما المقطع الأخير فقد تشكل من الصوت الصامت (الهمزة) الذي فرضه نفور العربية من توالي صائتين متتاليين، وبذا فإن هذه الهمزة المفترضة، يميلها وجود حاجز صامت بين الصائتين. وعلى هذا فإنه يكون بذلك قد تشكل مقطع طويل مفتوح في آخر الكلمة، فتوالت بذلك أربعة مقاطع مفتوحة متتالية، فكان المخرج أن أصبحت الكلمة ḍarabū أي مكونة من ثلاثة مقاطع مفتوحة متتالية. وهو أمر تسمح به القوانين الصوتية للعربية.

وإن لنا أن نتصور عدم وجود الحاجز الصوتي، ممثلاً في الهمزة المفترضة، في نحو: ḍa/ra/ba/'ū وعندئذ كان لا بدّ أن نتصور أن الحاجز الصوتي هو الواو w إذ تصبح الكلمة ḍa/ra/ba/wū. ولكن هذا يترتب عليه نشوء مقطع غير مستحب، وهو wū، لأنه يبدأ بحرف لين w. وأحسب أن الحالتين: الحاجز الصوتي الهمزة، أو الحاجز الصوتي بحرف اللين، قد حدثا في كلمة طاووس، التي يمكن توضيحها على النحو الآتي:

الحاجز الصوتي بالهمزة: ṭā/ū/sun ← ṭā/'ū/sun

الحاجز الصوتي بحرف اللين: ṭā/ū/sun ← ṭā/wū/sun

٦- المضارع المؤكد المسند إلى واو الجماعة:

يذهب القدماء إلى أنّ واو الجماعة قد حُذفت[١٨] من المضارع المسند إلى هذه الواو، وقد ضُم آخر الفعل إشعاراً بالواو المحذوفة. ولا شكّ في أن الشكل الكتابيّ كان سبباً في توهم القدماء حذف الواو. فالواو لم تحذف، وإنما قُصرت تحاشياً لتكون مقطع طويل مغلق. ومثال ذلك أن فعلاً ما، نحو "يكتبون"، إذا ألحقت به نون التوكيد، فإنه يصبح "يكتبون + نّ"، وقد حُذفت النون الأولى لتوالي الأمثال كما قال الصرفيون. وبتعبير أدق حُذف مقطع na الذي يشكل نهاية الفعل المضارع المرفوع من "تكتبون" taktubūna، فأصبحت الكلمة "تكتبونّ" tak/tu/būn/na. وقد تشكل بهذا مقطع طويل مغلق وسط الكلمة، وهو būn. وتحاشياً لهذا الطول قُصر المقطع، فأصبح مقطعاً قصيراً مغلقاً bun وقد حدث التقصير بتقصير الحركة الطويلة (الواو) لتصبح ضمة. غير أن الضمة لا تراعى في الشكل الكتابيّ كما هي الحال في الواو، ولذا قيل: حُذفت الواو. ولو كان الفعل المضارع المؤكد المسند إلى واو الجماعة، منتهياً بواو أو ياء أصلاً، نحو: "تدعو" أو "تمشي" لكان عند إضافة واو الجماعة إليه: تدعوون tad/ºū/'ū/na أو tad/ºū/ū/na وتجريون taǧ/rī/ū/na أو taǧ/rī/'ū/na فإذا أضيفت إليه نون التوكيد فإنه يصبح "تدعوونّ + نّ" tad/ºū/ū/nan/na أو tad/ºū/'ū/nan/na و "تجريونّ taǧ/rī/ū/nan/na أو taǧ/rī/'ū/nan/na وقد قلبت الياء

(١٢) ابن عصفور، الممتع، ج٢، ص ٤٤٢.
ابن جني، المنصف، ج١، ص ٢٥٦، الخصائص، ج١، ص ٣٧٤-٣٨١.
(١٣) ابن جني، المنصف، ج١، ص ٢٥٦، الخصائص، ج١، ص ٣٧٤-٣٨١.
(١٤) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ٢٥٢.
(١٥) ابن جني، المنصف، ج١، ص ٢٨.
(١٦) الأزهري، شرح التصريح، ج١، ص ٥٤.
(١٧) المصدر نفسه، ج١، ص ٥٤-٥٥.
(١٨) الميداني، نزهة الطرف، ص ٢٨٠؛
الأزهري، التصريح على التوضيح، ج١، ص ٥٧.

الصائتة في الصيغة الأخيرة واواً صائتة لمجاورة الواو، فأصبحت tağ/rū/ū/nan/na أو tağ/rū/'ū/nan/na. وبذا تكون الصيغتان قد التقتا: معتلة اللام بالواو، ومعتلة اللام بالياء، في شكل واحد، ثم حُذفت إحدى الواوين، تجنباً لتكرار صوتين صائتين طويلين متماثلين، فأصبحت الكلمة tağ/rū/nan/na وقد حذفت النون الأولى والصوت الصائت الذي يتبعها na تجنباً لتوالي الأمثال، فأصبحت الكلمة tağ/rūn/na فتشكل بذلك مقطع طويل مغلق rūn فقُصر المقطع هذا بتقصير الواو لتصبح ضمة u فأصبحت الكلمة tağ/run/na، وعلى هذا فإن الواو قُصرت ولم تحذف.

ولو كان الفعل المضارع المؤكد منتهياً بألف مثل "تسعى" فإن الألف لا تحذف كما قالوا، وإنما تُقصر، لتصبح بعد التقصير tasᶜaūnanna. ويتشكل صوت صامت قريب من الواو بين الصوتين الصائتين a + u حتى لا يتوالى صوتان صائتان وبذا تصبح الكلمة tasᶜawūnanna ثم تسير في الخطوات السابقة tasᶜawūnna أي بحذف المقطع na الذي يشكل علامة رفع المضارع، فيتشكل بذلك المقطع الطويل المغلق wūn فتقصر الواو، تخلصاً من ذلك tasᶜa/wun/na.

٧- توكيد الفعل المضارع المسند إلى ياء المخاطبة:

لا يبتعد ما قيل في هذا الصنف من الأفعال عما قيل في سابقه، فقد ذهب القدماء إلى أن ياء المخاطبة[١٩] قد حذفت في نحو "تذهبن" حين أضيفت إليها نون التوكيد. إن أصل الكلمة "تذهبينَ + نّ" فحذفت النون التي هي علامة رفع الفعل لتوالي الأمثال، فأصبحت الكلمة تذهبين tad/ha/bīn/na ثم قصرت الياء تحاشياً لتكون المقطع الطويل المغلق bīn، إذ أصبح المقطع قصيراً مغلقاً بتقصير الحركة الطويلة (أي الياء) لتصبح كسرة.

وتصبح الصورة أكثر تركيباً وتعقيداً لو كان الفعل أصلاً بالواو أو الياء، نحو "تبكين" (معتل الآخر بالياء) أو "تدعين" (معتل الآخر بالواو)، فهو عند توكيده يصبح "تبكيينّ" tab/kī/'ī/nan/na أو tab/kī/ī/nan/na أما الياء الأولى فهي أصلية. وأما الياء الثانية فهي ياء المخاطبة، وكذلك في "تدعين" أصلها تدعوينّ tad/ᶜū/ī/nan/na أو tad/ᶜū/'ī/nan/na إذ الواو أصلية والياء للمخاطبة، والنون الأولى علامة رفع الفعل، والنون الثانية المشددة علامة التوكيد، وقد قلبت الواو الأصلية ياء بتأثير الياء المجاورة، فأصبحت الكلمة "تدعييننّ" tad/ᶜī/ī/nan/na أو tad/ᶜī/'ī/nan/na ثم حذفت إحدى الياءين لتجاور صوتين صائتين طويلين من جنس واحد، فأصبحت الكلمة تدعينن tad/ᶜī/nan/na ثم حُذفت نون الإعراب لتوالي الأمثال، فأصبحت الكلمة tad/ᶜīn/na ، فتكون مقطع طويل مغلق هو ᶜīn، فقصر بتقصير الياء، فأصبح المقطع ᶜin، وأصبحت الكلمة "تدعين" tad/ᶜin/na. فالياء على هذا لم تحذف، وإنما قصرت.

وعند إسناد المضارع المعتل اللام بالألف إلى ياء المخاطبة، نحو: "تسعين" tas/ᶜay/na وأصلها tas/ᶜā/ī/na أو tas/ᶜā/'ī/na قصرت الألف تجنباً لتجاور صائتين طويلين، فإذا أكد الفعل فإنه يصبح tas/ᶜa/yī/nan/na، ثم تحذف النون الأولى لتوالي الأمثال، فتصبح الكلمة tas/ᶜa/yīn/na ، وبذا يتشكل مقطع طويل مغلق هو yīn فيقصر هذا المقطع بتقصير الياء tas/ᶜa/yin/na.

ويقول الصرفيون في فعل من مثل ترينّ tarayinna إن أصلها ترأيين، فحذفت الهمزة ونقلت فتحتها إلى الراء، وبذا تصبح الياء الأولى (لام الفعل) متحركة بالكسر: ترييين ta/ra/yīn/na ثم قلبت الياء ألفاً؛ لأنها سبقت بفتحة (فتحة الراء) فصارت: تراين ta/rā/īn/na ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، فأصبحت ترين ta/ray/na بدون نون التوكيد، ومع نون التوكيد تصبح ترين + نّ ta/ray/nan/na ثم حذفت النون بسبب الجزم في نحو: "فإما ترينّ من البشر أحداً" فأصبحت بعد حذف النون ta/ray+nna فالتقى ساكنان، هما: الياء والنون، فكسرت الياء لالتقاء الساكنين[٢٠]، فأصبحت الكلمة ta/ra/yin/na وما نراه في هذا المثال أن يقال إن هذه الكلمة مرت بما يلي:

أصلها المفترض tar/'ā/ī/nan/na أو tar/'ā/'ī/nan/na قصرت الألف ā، وهي لام الفعل، وتشكل صوت صامت بعدها حتى لا يتتابع صوتان صائتان دونما فاصل، فأصبحت tar/'a/yi/nan/na ثم حذف المقطع الذي يؤلف علامة رفع الفعل المضارع na، وذلك بسبب الجزم، ولو لم يجزم الفعل لحذف بسبب توالي الأمثال tar/'a/yīn/na وتشكل بذلك مقطع طويل مغلق، فقصر tar/'a/yin/na . وقد ترتب على تخفيف الهمزة أن يتغير النظام المقطعي في مطلع الكلمة، فبدلاً من أن تتكون من tar+'a+yin+na أصبحت تتكون من ta+ra+yin+na.

٨- صيغة يفتعل من المثال "وعد":

من المعروف أن الفعل المثال، نحو "وعد" إذا بُني على وزن "افتعل" فإنه يصبح اتعد، وتصبح "يسر": "اتسر". وهذا يعني أن الواو أو الياء قد قلبت تاء ثم أدغمت في تاء الافتعال، والأصل أن يقال: اوتعد iwtaᶜada' و "ايتسر" iytasara'. وقد نصت كتب اللغة

(١٩) الميداني، نزهة الطرف، ص ٨٠؛
الأزهري، التصريح على التوضيح، ج١، ص ٥٧.

(٢٠) الميداني، نزهة الطرف، ص ٢٧٣-٢٧٤.

على أن هذا الأصل قد ورد على ألسنة بعض الحجازيين[٢١] . ونصت كتب اللغة على أن من العرب من كان يقول في: "يتعد" و "يتسر": "ياتعد" و "ياتسر". وقد فسرت كتب اللغة ذلك بأن الياء أو الواو قد قلبتا ألفاً[٢٢] فأصبحت:

yāta^{c}id ← yawta^{c}id
yāṭasir ← yaytasir

وحقيقة الأمر صوتياً أن yawta^{c}id و yaytasir يبدأ كل منهما بمقطع قصير مغلق. وفي الوضع الثاني yāta^{c}id و yātasir أصبحت الكلمة تبدأ بمقطع طويل مفتوح yā ويبدو أن هؤلاء الذين ذهبوا هذا المذهب من النطق، كانوا يركزون في النطق على الفتحة التي تلي ياء المضارعة، فأصبحت الكلمة yāwta^{c}id و yāytasir وبذا يكون قد تكون مقطع طويل مغلق. وقد كان المخرج من ذلك حذف الواو أو الياء فأصبحت الكلمة yāta^{c}id و yātasir. وعلى ذلك فإن الواو لم تقلب، بل حُذفت. وهو أسلوب من أساليب العربية في معالجة المقاطع الطويلة المغلقة.

Arabic Linguistic Thought Between Sylable-Writing System

I. Amayrih*

ABSTRACT

The Arabic writing system influenced Arabic morphology, and influence can be traced clearly in descriptions of spoken linguistic phenomena in classical Arabic writing. Many classical Arabic of morphology reveal the influence of the writing system. For this study, various patterns of writing forms were gathered and analyzed and their influence on descriptions of morphological features of Arabic were investigated. This study also includes research into the impact of this interaction between the writing system and morphology on learning the Arabic language.

المراجع

(١) ابن جني، المنصف، ج١، ص ١١، ٢٧.
(٢) ابن جني، المنصف، ج١، ص ٥٣؛ الانباري، ابو بكر، مختصر في ذكر الألفات، ص ٢٠-٢٣.
(٣) أدرك القدماء ذلك في هذا الفعل، فقال الجوهري في الصحاح، مادة رأى، ج٦، ص ٢٣٤٧: "وقد تركت العرب الهمزة في مستقبله لكثرته في كلامهم".
(٤) ابن منظور، اللسان، رأى، ج ١٤، ص ٢٩١.
(٥) العيني، شرح المراح، ص ١٨٥.
(٦) ابن عصفور، الممتع، ج٢، ص ٤٤١.
(٧) عبد التواب، رمضان، فصول في فقه العربية، ص ١٩٣.
(٨) ابن جني، المنصف، ج١، ص ٨٠.
(٩) ذكر ابن عصفور في الممتع، ج١، ص ٤٤٣، أن من العرب من قال: مُت، بضم الميم.
(١٠) عمايرة، اسماعيل، ١٩٩٤، مقطع المضارعة بين العربية واللغات السامية، مجلة أبحاث اليرموك، المجلد ١٢، العدد ٢، ص ١١٩-١٣٩. ومختصر القول في تفسير هذه الظاهرة أن تماثلاً صوتياً قد حدث في الأفعال المضارعة التي تكسر عينها، نحو: يجلس، إذ تماثلت حركة ياء المضارعة بحركة عين المضارع المكسور، فأصبحت : يِجلِس، ثم قيس عليها حالات "التلتلة" الأخرى.
(١١) جزينيوس، ص ٤١٠.
(١٢) ابن عصفور، الممتع، ج٢، ص ٤٤٢؛ وانظر ابن جني، المنصف، ج١، ص ٢٥٦، والخصائص، ج١، ص ٣٧٤-٣٨١.
(١٣) ابن جني، المنصف، ج١، ص ٢٥٦، والخصائص، ج١، ص ٣٧٤-٣٨١.
(١٤) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ٢٥٢.
(١٥) ابن جني، المنصف، ج١، ص ٢٨.
(١٦) الأزهري، شرح التصريح، ج١، ص ٥٤.
(١٧) الأزهري، شرح التصريح، ج١، ص ٥٤-٥٥.
(١٨) الميداني، نزهة الطرف، ص ٢٨٠؛ والأزهري، التصريح على التوضيح، ج١، ص ٥٧.
(١٩) الميداني، نزهة الطرف، ص ٨٠؛ والأزهري، التصريح على التوضيح، ج١، ص ٥٧.
(٢٠) الميداني، نزهة الطرف، ص ٢٧٣-٢٧٤.
(٢١) الأشموني، ج٤، ص ٣٣٠.
(٢٢) الميداني، نزهة الطرف، ص ٢٧٥.

* Professor, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, University of Jordan.

Received on 27/5/1995, and Accepted for Publication on 26/3/1996.